

التوحيدى ليس غريباً علينا ، ولا هو مما يضعف عن وصف الأشياء التي جدت في حياتنا ولم يعرفها هؤلاء الكتاب ، وأي شيء يستطيع أسلوب طه حسين أن يصفه ، ولا يستطيع ذلك أسلوب أي كاتب كبير من كتاب الدولتين الأموية والعباسية ، وقد لاءم أسلوب الجاحظ حياة العباسيين ، وأظنه - لو كتبنا به - يلائم حياتنا .

إن القارئ لهذا الكلام من الدكتور طه يخيل إليه - لو كان يجهل العربية - أن لغات الأمويين والعباسيين والمماليك وأساليبهم - جنس آخر غير لغتنا وأسلوبنا ، وأنهم كانوا يتكلمون ويكتبون " بالهرغلفية " مثلاً ، ولو أن الدكتور قال إن بعض الأساليب التي سادت في القرون الماضية كأسلوب القاضي الفاضل ، أو العماد الأصبهاني - مثلاً - بنبو عنها أذواقنا ، أو حتى عن بعضها ، فإن أسلوب هذا الأخير في كتابه " خريدة العصر " لا يعيبه إلا التزام السجع ، أما ألفاظه فسهلة سائغة ، لو أنه قال هذا ، أو شيئاً يشبهه لقلنا إن الرجل يريد أن يصيب أو يريد أن يقارب الصواب ، أما تعميم الحكم هكذا فما أظنها إلا مغالطة قصد بها إلى الفلج بالحجة ، والمنافحة عن الرأي ، ولا عليه بعد ذلك أن يصيب كلامه المحز ، أو أن يقع بعيداً عن فصل الخطاب .

إن شر ما في هذه الخصومات الأدبية - بل وكل الخصومات - أنها تحمل أطرافها على الإسراف في الأحكام ، والمغالطة في القضايا ، ومحاولة العبث بالعقول ، وكل من يدين برأي فيها غير قابل لأن يتنازل عن شيء من رأيه لأن المسألة - كما تبدو للمحايد - لا تعدو أن تكون دفاعاً عن النفس ، وعن طريقة التفكير ، وأسلوب الكتابة ، وكل من يجيد فنا يحاول أن يحمل الناس على الاعتقاد بأنه خير ما أخرج للناس ، وذلك من حب الذات ، وسيطرة الأنانية على العقول والقلوب .

* * *

وقد ظهر في أوائل هذا القرن كتاب له شأن كبير في حركة التجديد ، وهو صنو لكتاب " الديوان " هذا الكتاب هو " الغربال " لميخائيل نعيمة ، الأديب